نشوء اللغة المصرية القديمة

ان البحث في اصل اللغة المصرية ومعرفة منشأها وانتسابها الى اللغات القديمة الاخرى يقتضي ضرورة معرفة اصل الشعب الذي تكلم بها وكتبها ومن اي امة من امم العالم القديم ومن اين اتى واي ارض سكنها قبل وطنه المكتسب لانهُ يستحيل على امة ما ان تتكلم في اصل نشأتها لغةً غريبة عن موطنها اللهمَّ الاَّ اذا استعبدت او غيرت موطنها الاصلي على توالي الزمن. مثال ذلك ان الامة المصرية الحالية مركبة من عدة عناصر : منها المصري الاصلي بقية الفراعنة ومنها السامي اليهودي ومنها الاغريقي وكل من هذه العناصر حين نزوله بهذه الديار كان يتكلم بغير العربية التي هي لغة البلاد العامة الحالية . اذ كان المصري الاصلي يتكلم بالقبطية التي كانت هي المصرية القديمة في آخر دور لها واليهودي السامي يتكلم بالآرامية او العبرانية حسب البلاد التي هبط منها والاغريقي الهلني تكلم بالاغريقية وهكذا

لقد اشتغل الدكتور البوت سميث الذي كان استاذاً للتشريح في مدرسة الطب المصرية مدة ثماني سنوات وقد ساعدتهُ في كل اشغاله التي كانت تدور حول دراسة جماجم المصريين القدماء وهياكلهم العظمية . فوجدنا من نتيجة الابحاث ان مصر كانت معمورة من مدة آلاف من السنين والجثث حفظت فيها بواسطة طبقة الارض آلافاً من السنين قبل التاريخ وقبل معرفة طريقة التحنيط وكانت جماجم المصريين قبل عصر الاهرام كلها متوسطة الحجم واجسامهم كذلك متوسطة الارتفاع وشكل الجمجمة من اعلاها بيضاوي ومجاويفها غير غائرة وحفرتاها الحجاجتان غير غائرتين والفك الاسفل صغير متماثل وفرعهُ الصاعد ضيق ونتوآتهُ بارزة واقطار الجمجمة قصيرة ولكن قطرها المقدم الخلفي اطول من القطر المقوس الجداري وعلى ذلك تكون من نوع الجماجم المستطيلة دوليكوكفالوس Dolichocephalus

وقد اطلق على هذا النوع من الجماجم الجنس الاصلي Autochthonus وتشابه هذه الجماجم تشابهاً تامًّا جماجم الليبيين سكان صحراء ليبيا

وقد عثرنا على عدد كبير من جثث مختلفة مدفونة حول اهرام الجيزة وبدراسة جماجمها وجدناها تختلف تماماً عن الجماجم المصرية القومية قبل مينا وبعدهُ ولم نعثر

على امثالها قبل الاهرام . واوجه الاختلاف في هذه الجماجم هي كما يأتي : اولاً انها اكبر على وجه العموم من الجماجم المصرية القديمة وشكلها مستدير اكثر من الاولى اي ان النسبة بين قطرها المقدم الخلفي وبين قطرها المنقوس الجداري اقل فيها من الجماجم الاولى وعلى ذلك تكون من النوع العريض Brachycephalus . ثانياً ان فكها السفلي يختلف تمام الاختلاف عن فك الجماجم المصرية فانهُ طويل الفرع الصاعد عريضهُ بارز النتوات سميك في زاويتهِ عريض في قوسهِ كما ان الثرم في اعلى فرعهِ الصاعد غائر

ومن غرائب الصدف اننا عثرنا في الوقت عينهِ ولكن في جهة مختلفة من مصر وهي مجمع الدير في مديرية قنا على جثة من العصر المسيحي لاناس غرباء عن القطر المصري ولكنهم ماتوا فيهِ ودفنوا في تلك المدينة ويرجع تاريخهم الى اوائل القرن الخامس للمسيح . وبدراسة هذه الجثث وجدناها تشبه تمام الشبه الجثث القديمة التي وجدناها مدفونة حوالي الاهرام من جهة مقاييس الاقطار والشكل وعلى الخصوص الفك الاسفل الذي شابه تماماً الفك الاسفل في الجماجم القديمة

وبالبحث عن علاقة هذه الجماجم المسيحية ارتأيت لاستاذي الدكتور اليوت سمث انهُ حوالي القرن الخامس كانت بدعة تسطور قد ابتدأت والمناقسة فيها احتدت ومن المعلوم انهُ في العصر المذكور كانت جماعة من الارمن والسريان موجودة بكثرة وكثيرون منهم من تبع تسطور بطريركهم فلما قطع تسطور من شركة الكنيسة نفي هو واتباعهُ والباقون هربوا الى اقاصي الصعيد وماتوا ودفنوا هناك فلا يبعد ان تكون هذه الجثث جثثهم . وقد رجحت هذه الفكرة في نظر الاستاذ فاهتم بها وتوصل الى مقارنة هذه الجماجم بجماجم الارمن والعراقيين الشماليين فوجد الشبه شديداً جداً وعلى ذلك اطلق على الجماجم الغريبة اسم الجماجم الشبيهة بالارمنية Armenoid

وقد اتبعناها في حفائرنا في مختلف الجبانات المصرية القديمة وتتبعنا اختلاط هذه الجماجم الغريبة بالجماجم الاصلية الليبية المصرية حتى تم الاختلاط بين العنصرين وتكوّن الجنس الفرعوني حوالي عصر الدولة العاشرة وما بعدها من ملوك الفراعنة واستمرّ هذا الشكل للجماجم المصرية الى عصرنا هذا في اقباط الصعيد رغماً عن بعض الاختلاطات التي حصلت بين المصريين واليونان والرومان في القرون الاولى للمسيح . ولا ننسى ان في قبلي الصعيد حصل امتزاج كثير بين زنوج السودان

والمصريين ولكن من الغريب ان هذا الاختلاط كانت تضيع آثاره بعد جيلين او ثلاثة اجيال وترجع الجمجمة الى الاصل المصري الفرعوني

ويحسن بنا ان نذكر ان سكان النوبة والاقاليم المتاخمة لمصر كانوا من النوع المصري القديم اي يرجع اصلهم الى الجنس الليبي وان مدنيتهم كانت واحدة كالمدنية المصرية وانما اهالي مصر سبقوا اخوانهم السودانيين واختلط الاخيرون بزنوج افريقية فتغيرت انواعهم على مر الزمان

ويجمل بنا هنا ايضاً ان نذكر ان اهالي الصومال يقربون كثيراً من قدماء المصريين وكثيراً من قبائل البشاريين والبيجا والبلاهمة يشبهون كثيراً في جماجمهم المصريين وغاية عن اختلاطهم الشديد بعرب البادية الشرقية

نتج مما سبق ان الجنس المصري الفرعوني تكوّن من عنصرين مهمين : اولهما واقدمهما بل واهمهما هو العنصر الليبي الاصلي الذي نزح الى وادي النيل في العصور القديمة السحيقة في القدم التي ترجع الى الآلاف من السنين قبل التاريخ وقبل مينا اول ملك فرعوني معروف . والعنصر الثاني هو العنصر الغريب الذي هبط مصر حوالي عصر الاهرام واختلط بالمصريين وتناسل معهم وهو الذي بالنسبة لتشابه جماجمه مشابهة تامة لجماجم سكان شمال ما بين النهرين حتى جبال طورس أطلق عليهم الاستاذ اليوت سمث الجنس الشبيه بالارمني . ومن اختلاط هذين العنصرين المهمين تولد الجنس المصري القديم الفرعوني الذي حافظ على شكله وكيانه رغماً عن تغير العصور واختلاطه بالامم المختلفة حتى الآن فان جمجمة اي مصري — قبطي او مسلم — من اقاصي الصعيد الذي لم يحصل اختلاطه قريباً من اجداده مع الترك او العرب او غيرهم تشابه مشابهة تامة في عمومياتها الجمجمة الفرعونية القديمة . هذا ما اثبتهُ علم الانثروبولوجية بهمة الاستاذ سمث وقد وافق عليهِ اساطين العلم وترى منهُ ان ليس للعنصر السامي دخل في تكوين الجنس المصري القديم

ولنرجع الآن الى مقارنة مدنية قدماء المصريين ومعرفة اصلها وهل هي نشأت في مصر ام ادخلت فيها . ان اقدم المخلفات التي عثر عليها لغاية الآن هي قطع من العاج كقابض الخناجر او الواح منقوش عليها رسوم واشكال الخ ويدرس هذه القطع دراسة مطولة بواسطة العلماء الاخصائيين (راجع وصف مقبض السكين الذي

وجد في جبل العرق في الصحراء الشرقية نحو ٤٠ ميلاً للاستاذ بتري في جرنال الآثار المصرية لجمعية الحفائر المصرية الانكليزية سنة ١٩٢٠ Journal of the Egyptian Archaeology وكتابات السر فلندرس بتري وماسبرو وبرستد وراجع مقالة للاستاذ روستوڤف عن كتر سوسه في الجرنال السابق الذكر الخ) وجد ان التشابه عظيم جداً بين اقدم مدنية المصريين القدماء وبين مدنية سكان سومر واكاد في شمال بلاد ما بين النهرين المنبوت نهائياً ان اصلهم ليس من الجنس السامي . كما انهُ ما زاد في المدنية المصرية القديمة عن هذه المدنية الغربية يرجع الى المدنية الليبية التي انشأها سكان مصر الاصليون النازحون اليها من صحراء ليبيا وعليه يثبت بدون شك من علم الانثروبولوجيا اي دراسة الجثث والهياكل العظمية وعلم الاثنولوجيا اي دراسة المدنيات ، أن لا دخل للعنصر السامي في سكان مصر الاقدمين

بيد انهُ بتتبع التاريخ نجد ان الاختلاط بين المصريين القدماء وبين اهل الشام وفلسطين كان موجوداً من اقدم العصور وان شواطىء فلسطين كانت تحت حكم المصريين من اقدم عصر من عصور التاريخ وانهُ حوالي العائلة الثامنة عشر المصرية ابتدأت فتوحات الفراعنة تتسع اتساعاً هائلاً حتى عمت كل الشام وفلسطين ووصلت الى ما بين النهرين وزيادة على ذلك فقد حصل اختلاط عائلي بين ملوك العائلة الثامنة عشر — واهمهم امنحتب الثالث — وبين ملوك الشام فقد تزوج هذا الاخير بابنة ملك ميتاني ثم كثر هذا الاختلاط في عصر الرمسيسيين كما هو معروف من التاريخ ولكن اختلاط بعض الافراد من الامة المصرية لا يؤثر على وحدة الجنس المصري مهما بلغ تأثير هؤلاء الاشخاص

ولنطبق الآن كل هذه المعلومات على اللغة المصرية عسانا نتحقق من طبيعتها بالمقارنة المعهودة في علم الفلولوجيا . عاشت هذه اللغة آلاف طويلة من السنين ولم يقف استعمالها لغاية يومنا هذا واصبحت معروفة لنا من اقدم تاريخ لها للآن ورغماً عن المشابهة الظاهرة التي بينها وبين اللغات السامية فالفرق عظيم جداً كما ان روح اللغة وكيانها وتراكيبها رغماً عن كل ما كتب لتقريبها من اللغات السامية لا يزال بعيداً جداً عن روح اللغات السامية وكيانها حتى ان اشد انصار القائلين بأنها لغة سامية لا يقدر ان ينكر شدة الفرق بينهما

لما اكتشف شمبوليون قراءة اللغة المصرية كان من اهم الاشياء المساعدة له على اكتشافها ليس معرفتهُ للغات السامية بل لمعرفة اللغة القبطية وليس لمعرفته للغة اليونانية والرومانية كما قال بعضهم في احد اعداد المقطم فان لا دخل لليونانية او الرومانية بالمرة في اللغة المصرية

وقد اجتهد شمبوليون ان يقرّب اللغة المصرية للغات السامية ولكن امله خاب كلما ازداد معرفة للغة وتبعهُ في ذلك ده روجيه خلفهُ وماسبرو وجولنشف وناڤل ولوباج رتوف وبرش ودوسيلي وليمانس وكارل بيل وجميع علماء العالم عدا علماء برلين وكان اول القائلين بسامية اللغة المصرية ادولف ارمان الذي الف اجرومية على قياس اجروميات اللغة السامية وقسم فيها الفعل الى ثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي واتبع في تقسيم الفعل الثلاثي اللغة العربية وتكلم عن الناقص والمعتل والضعيف المفروق واللفيف المقرون الخ

وتكلم عن الضمائر واثبت مشابهتها لفظاً ومعنى للضمائر السامية واجتهد ان يوفق ما بين الصرف المصري والصرف السامي واكد كثيراً من وجود الصفة المشبهة في اللغة المصرية ووجودها في اللغات السامية Pseudo-participe وتكلم عن الاعداد ومشابهة اسماء بعضها لفظاً وتركيباً للغات السامية ولكن هل يثبت كل ذلك ان اللغة المصرية لغة سامية حقيقة ؟

كان اشد انصار ارمان الاستاذان زيبي Sethe وشتيندورف Steindorf وكتب زيبي كتاباً ضخماً عن الفعل في اللغة المصرية من ابتداء نشأتها لغاية اللغة القبطية الحالية واتبع في وضعه طريقة ارمان ولكنهُ عاد الآن الى القول بانهُ لو كانت اللغة المصرية لغة سامية فلا بد وان تكون اشتقت من لغة اصلية قبل وجود اللغات السامية واشتقاقها اي انها وجدت قبل ان تنقسم لغات العالم الى لغات سامية وحامية وآرية لانها اقرب الى اللغات الحامية منها الى اللغات السامية وقال شتيندورف بمثل هذا القول وهكذا نرجع الى النظرية الاولى وهي ان كانت هناك مشابهات بين اللغة المصرية واللغة السامية وليست مشابهات سطحية فقط فيكون تفسيرها انها موجودة في اللغة قبل انقسام لغات العالم من بعضها او انها دخيلة متأخرة . واثبات ذلك اننا اذا قارنّا الضمائر المصرية بالضمائر السامية وجدنا المشابهة في بعض انواع الضمائر

وكان هناك نوع من الضمائر مستعملاً قديماً جداً ولا شبه بينهُ وبين الضمائر السامية الا شبهٌ سطحي محض

وقد قال بهذا القول نفسه كل من اكابر العلماء الذين لم يرضخوا لطريقة ارمان ومدرسته مثل ماسبرو ونافل وجولنشف وكارل بيل وغيرهم

ولقد حادثت الدكتور جاردنر الانكليزي طويلاً — وهو من اشد انصار ارمان لانهُ تلميذهُ ولكنهُ درس على ماسبرو أيضاً — فكان ملخص رأيه ان اللغة المصرية لغة قائمة بذاتها وهي اقرب الى لغات افريقيا منها الى لغات اسيا الشمالية وانها اقرب الى اللغات البربرية (سكان شمال افريقيا اجداد التونسيين والجزائريين والطوارج) والى لغة بلاد الصومال والشاديه منها الى اللغات السامية وان لروح هذه اللغة وتركيبها وصرفها ونحوها بل وحروفها ومنطقها ومقاطعها صفات خاصة بها وحدها مطلقاً وهكذا يقول الجميع الان وهو ما يقرب الى الحقيقة وما يسهل فهم اللغة المصرية على متعلميها

اما القول بان كل لفظ في اللغة المصرية لا بد من وجوده في اللغة العربية معنى ولفظاً وانهُ ان غاب عنا معنى اللفظ المصري لا بد من البحث عنهُ في اللغة العربية هو ما يصعب اثباته ان لم يكن مستحيلاً بكل الطرق العلمية المعقولة والمتبعة للاسباب التي سنذكرها فيما يتبع والاَّ قلنا مثلاً انهُ اذا غاب عنا معنى لفظ (فول) العربية وهو اسم البقل المعروف نبحث عنهُ في اللغة الانكليزية فنجد ان فول fool ومعناهُ مجنون وعليهِ يكون معنى لفظ فول العربي كمعنى fool الانكليزي !

اما الاسباب التي بُني عليها هذا القول هي ما يأتي

اولاً ان اللغة العربية كما هي الآن لا يرجع تاريخها الى اكثر من خمسة الى ستة قرون قبل المسيح ولم يترك بها اقدم كتابة ما على احجار او خلافه قبل القرون الاولى المسيحية وكانت تكتب بحروف غير الحروف الحالية

ثانياً ان اقدم الكتابات التي وجدت في جزيرة العرب هي باللغة الصابئة والحميرية اللتين هما من امهات اللغة العربية

ثالثاً انهُ مهما يقال عن العرب وعلاقاتهم بقدماء المصريين لم يثبت باي صفة من الصفات حقيقة هذه العلاقات

رابعاً ان اللغة العربية مركبة من عدة لغات ولهجات كانت تتكلم بها قبائل العرب الرحالة وان لغة قريش كانت افصح لغات العرب وان كل هذه اللغات تقرب من اللغات السامية الاخرى كاللغة البابلية والاشورية والعبرانية والارامية الخ فلا بد لوجود اي كلمة مصرية بفرض ان اصلها سامي — ان توجد في احدى هذه اللغات السامية او فيها كلها

خامساً ان المصريين القدماء كثيراً ما كتبوا كلمات سامية في ايام اختلاطهم بالامم السامية وحروبهم ضدهم وكانت تنقل هذه الكلمات سماعاً الى المصرية بكل تكلف وندر جداً ان نقل المصريون كلمة على وجهها الصحيح فان كانت طبيعة اللغة المصرية سامية كما يقولون لكان هذا النقل من اسهل الامور

وقبل الختام نقول كلمة وهي انهُ لما دخل العرب مصر كانت لغة البلاد هي القبطية وهي آخر ما وصلت اليه المصرية وقد استمر الاقباط يتكلمون لغتهم ويستعملونها حتى القرن السادس عشر وبعدهُ . ومن ذلك نشأت اللهجة العامية المصرية خصوصاً الصعيدية التي تحتوي على كثير من التعبيرات والكلمات القبطية لا بل في تراكيبها وتعبيراتها كثيراً ما تطابق القبطية واللهجة العربية الدارجة تختلف عن كل اللهجات العربية الدارجة في سائر البلدان كالشام والجزائر فانهُ في الشام مثلاً تأثرت اللهجة الدارجة بالارامية والسريانية وانهُ ان كانت هناك ادنى علاقة بين العربية والمصرية تكون هذه العلاقة في اللغة الدارجة العربية خصوصاً لغة اهل الصعيد الذين بقوا زمناً طويلاً يتكلمون القبطية والعربية (تراجع مقالاتي في مجلة مصر القديمة سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٢ Ancient Egypt)

وموعدنا في المقال الآتي عن ماهية اللغة المصرية وطبيعتها وكيف ابتدأت الكتابة الهيروغليفية والنظام الذي اتبعتهُ في نموها وفي ظهور الكتابات الاخرى ان شاء الله

جورجي صبحي